هشام نفاع *

إسرائيل- جنوب أفريقيا: تحوّلات العلاقات بين متانتها ونفعيّتها مع الأبرتهايد وبين تراجعها مع أفوله

مقدّمة

يتألف الملف الذي يحمل عنوان «علاقات إسرائيل جنوب أفريقيا – يوميات» في أرشيف الدولة الإسرائيلي الرسمي[1] ويتناول العامين ١٩٦١ و ١٩٦٢، من ٢٢٤ صفحة، ويضم رسائل مختلفة والكثير من القطع الصحافية، لكنه يضم أيضًا ملفّات فارغة وصفحات كتب عليها بخط كبير: «سرّي». أظهر الفحص الأخير الذي أجريته في أواسط تشرين الثاني، أنها ما زالت «سريّة»، على الرغم من مرور نحو ٦٠ عامًا على تأليفها، ما يدلّ على «حساسيّتها».[2]

أشغلت مسألة تغييب صفحات تاريخية من العلاقات بين الدولتين حين كانت الدولة الأفريقيّة الجنوبية تحت حكم الأبرتهايد، دارسين كثرًا. ويجد من يبحث عن أدبيات سياسية حول هذه المسألة عناوين كتب ومقالات تتراوح ما بين الأكاديمية والبحثية والصحافية، تنشغل بجانب السرية التي لفّت الأمر.

تتألف الرواية الرسمية الإسرائيلية من عنصرين مترابطين: علاقات إسرائيل المتوترة مع جنوب أفريقيا حتى مطلع السبعينيات، وكانت أولاً بسبب رغبتها في علاقات وثيقة مع دول أفريقيا من أجل الحصول على دعم سياسي منها، ما تطلّب الابتعاد عن جنوب أفريقيا. ثانيًا: تأثرت سياسة إسرائيل تجاه جنوب أفريقيا من معارضتها سياسة الفصل العنصري.

* كاتب وصحافي، رئيس تحرير صحيفة الاتحاد- حيفا.

يشير عدد من الباحثين، وحتى الدبلوماسيين الإسرائيليين السابقين، إلى أن معيار قوة العلاقة التي أرادتها إسرائيل مع جنوب أفريقيا تحت حكم الأبرتهايد، لم يكن الموقف القيمي والأخلاقي الرافض للتمييز العنصري، بل حسابات المنفعة الباردة في حلبة السياسات الدولية وصراعاتها، ومنافعها الاقتصادية (والدبلوماسية) ذات الصلة.

تتأسّس هذه الرواية الرسمية على مجموعة من الفرضيات أو الادعاءات، التي أثبت الواقع السياسي أنها هشّة إن لم تكن زائفة. ويشير عدد من الباحثين وحتى الدبلوماسيين الإسرائيليين السابقين، إلى أن معيار قوة العلاقة التي أرادتها إسرائيل مع جنوب أفريقيا تحت حكم الأبرتهايد، لم يكن الموقف القيمي والأخلاقي الرافض للتمييز العنصري، بل حسابات المنفعة الباردة في حلبة السياسات الدولية وصراعاتها، ومنافعها الاقتصادية (والدبلوماسية) ذات الصلة. وهم يدّعون، مثلما سيورَد هذا بالتفصيل لاحقًا، أن الدليل على ذلك هو مسارعة إسرائيل إلى تعزيز العلاقات بدرجات سريعة وصلت حتى «ذُرى نوويّة»، حين لم تعد علاقاتها مع دول أفريقيّة كثيرة ممكنة الاستمرار، ولا مجدية نفعيًا، بل إن هذا التحوّل في العلاقات جاء تحديدًا حين اشتدّت عدوانية نظام الأبرتهايد ووحشيته، وحين ازداد نفور واشمئزاز الغالبية الساحقة من دول العالم منه، وفرض عليه عقوبات وصلت حدّ المقاطعة.

١.أ. ١٩٤٨ - "الحزب القومي" في جنوب أفريقيا: "وحدة مصير" مع إسرائيل

ألون ليئيل هو باحث ودبلوماسي إسرائيلي سابق، عمل في مجالات ارتبطت بعلاقات إسرائيل وجنوب أفريقيا. من بين وظائفه في وزارة الخارجية، كان عام ١٩٨٦ رئيسًا لشُعبة جنوب أفريقيا ثم سفيرا إسرائيليا في جنوب أفريقيا عام ١٩٩٢. ألّف كتابًا[٣] بعد إنهاء عمله أفرد فيه أجزاء واسعة لتطور العلاقات بين إسرائيل وجنوب أفريقيا، ضمّنه معطيات ومعلومات وتفاصيل قاتمة في هذا السياق، وخصوصًا أشكال «التعاون» العسكري بين دولتين جمعتهما خصائص ومميزات من النوع السيء بموازين العنصرية والعدوانية نحو الجيران.

يعود الكتاب إلى العام ١٩٤٨ مع إقامة دولة إسرائيل، حين اعتلى الحكم في جنوب أفريقيا، مجددًا، «الحزب القومي». ويقول إن رؤساء هذا الحزب وأنصاره رأوا «وحدة مصير» بينهم وبين دولة إسرائيل منذ تأسيسيها. أولاً بوصفهم أقلية بيضاء محاطة بغالبية سوداء كبيرة، فيما يشبه «الوضع الموازي» لأقلية يهودية مقابل الأغلبية العربية؛ ولاحقا أيضا «كأقلية رأسمالية غربية محاطة بغالبية شيوعية»، على حدّ وصف ليئيل. فكل «انتصار في ساحة المعارك لإسرائيل عزز شعور البيض في جنوب أفريقيا أن صمودهم أمام الأغلبية السوداء ممكن، وهم قادرون على الانتصار في نهاية المطاف في صراعهم الذي رأوا فيه صراعا عادلا»، يضيف.

يصحّ القول إن هناك بنية تحتية سابقة، قوامها الصورة الذاتية للمجموعتين المهيمنتين في الدولتين، وإن النظرة الاستشراقية الاستعلائية على المحيط، قد شكلت المتكأ والشرعنة لما سيُقام لاحقًا من علاقات بينهما. وحتى لو كانت الرواية الرسمية، وبعض الرؤى الأكاديمية، تنسب للمؤسسة الإسرائيلية الحاكمة مواقف قيمية منعتها من إقامة علاقات مع دولة الأبرتهايد الأفريقيّة، حتى مطلع سبعينيّات القرن العشرين، فإن تلك الصورة الذاتية (للمحاصَر الذي يواجه أعداء أقلّ منه قيمة)[٤] كانت حاضرة دائمًا، وربما هي عنصر مركزي في مجموعة العناصر التي أطلقت العنان لعلاقات وطيدة تعجّ بالسلاح بين الدولتين. مسألة السلاح مهمة، لأن العقيدة التي وقفت خلفه كانت زعم «الشعور بخطر وجودي» و ضرورة مواجهة «محيط معادٍ يهدد وجود الدولة».

قلّما كاشفت حكومات إسرائيل الجمهور بحقيقة مذهلة، تخصّ إعجاب زعماء الأبرتهايد في جنوب أفريقيا بالنازيين. المؤسسة التي عرفت كيف تحقق المكاسب من جرائم النازيين وفظائعهم، لديها اعتبارات خاصة متعلقة بمدى التركيز المطلوب على من بجّلوا هذا الإرث الوحشي. لم تمنع الخلفية المؤيدة للنازية لدى قسم من زعماء «الحزب القومي» الذي اعتلى الحكم في جنوب أفريقيا تلك الفترة، المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية من نسج علاقات كثيفة جدا.

١.ب. «جزر الحداثة»، «العدوّ المتخلّف»، و«عقدة مسادا»

تلاقي النقطة الأخيرة أعلاه تدعيمًا حتى في كتاب الدبلوماسي الإسرائيلي المذكور «عدالة سوداء – الانقلاب الجنوب افريقي»، إذ يصف كيف كانت أجزاء من القوى السياسية المهيمنة من البيض في جنوب أفريقيا قد رسمت لنفسها «متوازيات بين تاريخها والتاريخ اليهودي وبين مصيرها في جنوب أفريقيا ومصير إسرائيل». فقد نظرت إلى نفسها كـ«جزيرة من الحداثة» التي تحارب من أجل البقاء «أمام عدوّ متخلف يدعمه عدو إضافي يتمثل بالعالم الشيوعي». بالنسبة لأولئك السياسيّين كانت هذه الخلاصة، يقول المؤلّف، «بمثابة إستراتيجية الحصار التي كانت موازية لـ«عقدة مسادا» في إسرائيل والتي راحت تتطور حتى أصبحت في مقام دِين، وشكلت مدماكًا مهمًا في التوجه العام لدى تلك القوى البيضاء المهيمنة».

«كانت المسافة من هنا حتى رؤية إسرائيل نفسها الجسم الموازي لدولة البيض مسافة قريبة جدا، إسرائيل صُوّرت أيضا وارتسمت كجزيرة صغيرة من الحداثة والتقدم التي تحارب بشجاعة كبيرة مئات ملايين المسلمين الأعداء. لقد أحبونا في جنوب أفريقيا البيضاء ليس للأسباب الصحيحة»، يقول ليئيل ملمّحا إلى الجوانب الإشكالية الصارخة. كذلك، فقد تطور في صفوف زعماء الأبرتهايد تقدير وحتى تبجيل للإنجازات التكنولوجية الإسرائيلية، وخصوصا أو بالأساس العسكرية منها.

كإحدى النوادر ذات الصّلة: وصف الرئيس السابق في جنوب أفريقيا ويلهيلم فريدرك دكلارك، خلال محاضرة القاها عام ١٩٩٩ في جامعة تل ابيب، وصف مشاعره «نحو الشعب اليهودي» على حدّ تعبيره كالتالي: «حين آتي إلى إسرائيل كأنما آتي إلى بيتي، الأرض المقدسة كانت الأولى التي تعرفت عليها خارج بلادي. سمعت عن بيت لحم والناصرة قبل أن أسمع عن لندن وباريس. وكنت أعرف التاريخ اليهودي قبل أن تعرفت على تاريخي والتاريخ البريطاني والفرنسي».

قلّما كاشفت حكومات إسرائيل الجمهور بحقيقة مذهلة، تخصّ إعجاب زعماء الأبرتهايد في جنوب أفريقيا بالنازيين. المؤسسة التي عرفت كيف تحقق المكاسب من جرائم النازيين وفظائعهم، لديها اعتبارات خاصة متعلقة بمدى التركيز المطلوب على من بجّلوا هذا الإرث الوحشي. لم تمنع الخلفية المؤيدة للنازية لدى قسم من زعماء «الحزب القومي» الذي اعتلى الحكم في جنوب أفريقيا تلك الفترة، المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية من نسج علاقات كثيفة جدا، كما سيتبيّن فيما يلي. كانت لدى «الحزب القومي» فترات من اللاسامية والتأييد للنازيين خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. هناك زعماء اتهموا بنزعاتهم اللاسامية والتواطؤ والتعاون مع الألمان النازيين، بينهم جون فورستر وأريك لاو، ود. برفرت.

٢. الخمسينيّات والستينيّات: علاقات باردة بغطاء خارجي أخلاقي

تصف الوثائق الرسمية الإسرائيلية° علاقات إسرائيل مع جنوب أفريقيا في الستينيّات على أنها توتر متزايد. اتبعت إسرائيل تلك السياسة لأسباب سياسية، ويرجع ذلك جزئيًا إلى رغبتها في العمل بشكل وثيق مع دول أفريقيا السوداء من أجل الحصول على دعم سياسي منها، الأمر الذي تضمن حتمًا الابتعاد عن جنوب أفريقيا.

ومع ذلك، كان للعلاقات بين إسرائيل وجنوب أفريقيا أيضًا عامل مخفِّف، وهو وجود جالية يهودية كبيرة وقوية في جنوب أفريقيا، لها علاقات وثيقة مع

أما في حزيران ١٩٦٧، حين وقعت الحرب التي انتهت باحتلال إسرائيلي واسع، فقد كانت تلك «علامة فارقة» في العلاقة بين الدولتين. وذلك بعد الدعم الذي تلقته إسرائيل من جنوب أفريقيا في فترة ما قبل الحرب، التي قررت خلالها إسرائيل تحسين العلاقات معها، فخففت من انتقادها لجنوب أفريقيا وتجنبت النقد العلني لها قدر الإمكان

إسرائيل. تتحدث الرواية الإسرائيلية عن أن «الخوف من إيذاء الجالية اليهودية والرغبة في الحفاظ على علاقات جيدة معها دفع إسرائيل إلى السير على حبل مشدود في علاقاتها مع جنوب أفريقيا في الأعوام ١٩٦٦-١٩٦٥». وبنظر واضعي السياسات، اتبعت إسرائيل «سياسة حكيمة ذات شقين: تجنبت قطع العلاقات مع جنوب أفريقيا، لكنها عملت ضدها في المحافل الدولية. صوتت باستمرار في الأمم المتحدة ضد سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، لكنها امتنعت عن التصويت على مسألة طرد جنوب أفريقيا من الأمم المتحدة».[٦]

يقدّم الأرشيف الرسمي رواية مفصلة عن العلاقات بين الدولتين، فيصفها كالتالي:

«في سياق علاقات إسرائيل مع الدول الأفريقيّة، حظيت العلاقات مع جنوب أفريقيا باهتمام خاص، وليس بالضرورة اهتمامًا إيجابيًا. فعلاقات إسرائيل بدولة تدعو رسمياً لسياسة التمييز العنصري أعطتها صورة سلبية، وشكّلت أداة في أيدي الدول العربية في حربها الدعائية ضدها (إسرائيل)». ويتابع تقرير الأرشيف: «لقد اتسمت علاقات إسرائيل مع جنوب أفريقيا في الأعوام ١٩٦٤-١٩٦١ بتوتر متزايد بمبادرة إسرائيلية لذلك. واتبعت إسرائيل هذه السياسة لأسباب سياسية، ويعود ذلك جزئيًا إلى رغبتها في العمل بشكل وثيق مع دول أفريقيا السوداء من أجل الحصول على دعم سياسي منها، الأمر الذي تضمّن حتمًا الابتعاد عن جنوب أفريقيا وحتى مناهضتها. كما تأثرت سياسة إسرائيل تجاه جنوب أفريقيا بارتداعها من سياسة الفصل العنصري ومعارضتها لها، ولم تكن هذه شعارات. ففي الأعوام ١٩٦٤-١٩٦٣، بمبادرة من وزيرة الخارجية حينذاك غولدا مئير، كثفت إسرائيل من سياستها ضد جنوب أفريقيا وتدهورت العلاقات بين البلدين».

أما في حزيران ١٩٦٧، حين وقعت حرب الخامس من حزيران التي انتهت باحتلال إسرائيلي واسع، فقد كانت تلك «علامة فارقة» في العلاقة بين الدولتين. وذلك بعد الدعم الذي تلقته إسرائيل من جنوب أفريقيا في فترة ما قبل الحرب، التي قررت خلالها إسرائيل تحسين العلاقات معها. فخففت من انتقادها لجنوب أفريقيا وتجنبت النقد العلني لها قدر الإمكان. تصف الوثيقة المذكورة كيف تحركت السياسة الإسرائيلية وتبدّلت: ومع ذلك، فبعد الحرب حين بدأت تظهر الاتهامات لإسرائيل بإقامة نظام فصل عنصري في الأراضي العربية التي احتلتها، سارع الزعماء الإسرائيليون إلى الخروج مرة أخرى ضد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. وهكذا فقد «تأرجح البندول ثانية» وحدثت أزمة حادة في العلاقات مع حكومة جنوب أفريقيا.

٣.أ. ١٩٧٣ عام التحوّل: «اجتياح إسرائيلي لأفريقيا»

استعرض البروفسور بنيامين نويبرغر، المتخصص في العلوم السياسية والاجتماعية والباحث في موضوعات: القومية الأفريقيّة، الصراعات العرقية، الأنظمة والسياسة، أفريقيا في العلاقات الدولية، والعلاقات الإسرائيلية الأفريقيّة، كما يعرَّف على صفحته الجامعية الرسمية، في كتاب بعنوان «أفريقيا في العلاقات الدولية»،[٧] فصولا واسعة من علاقات إسرائيل وجنوب أفريقيا. وهو يرى أن أهمية أفريقيا في علاقات إسرائيل الخارجية تجسدت، من بين أمور أخرى، في "العلاقة المتحفظة" نحو أفريقيا الجنوبية البيضاء. ويصف كيف شهدت وزارة الخارجية صراعًا بين أنصار السياسة التي تحرّكها المصالح والواقعية السياسية الذين رفعوا لواء إقامة علاقات قريبة مع أفريقيا الجنوبية حتى لو تهدّدت

(مـن اليسـار): صـورة تجمـع وزيـر الدعايـة نظـام الفصـل العنـصر الجنـوب إفريقـي شـيف راهـودي مـع رئيـس الـوزراء الإسرائيـلي إسـحق رابـين، ورئيـس جهـاز المخابـرات الجنـوب إفريقـي هينريـك بـيرغ، وشـمعون بيريـس.

العلاقـات مـع سـائر دول أفريقيـا، وبـين «الأفريقانيـين» الذيـن رفضـوا أي علاقـات قريبـة مـع جنـوب أفريقيـا. وهـو يدّعـي أن التيـار الأخـير كان الأقـوى، لفـترة معينـة عـلى الأقـل.

يشـير الكتـاب الى أنـه لـم تكـن في الستينيات في بريتوريا سـفارة إسرائيليـة، ولا في تـل أبيـب سـفارة جنوب-أفريقيّـة. بـل كانـت إسرائيـل تصـوت في الأمـم المتحـدة بشـكل منهجـي ضـد سياسـيات الأبرتهايـد في جنـوب أفريقيـا. اسـتمرّ هـذا الوضـع حتـى حـرب ١٩٧٣ المعروفـة في المعجـم الإسرائيـلي بـ«حـرب يـوم الغفـران»، التـي أحدثـت «انقلابـاً» في العلاقـات الإسرائيليـة الأفريقيّـة. وقـد سـبقت هـذه الحـرب مـؤشرات عـلى تدهـور العلاقـات: بـين آذار ١٩٧٢ وأيلـول ١٩٧٣ قطعـت سـبع دول أفريقيّـة علاقاتهـا مـع إسرائيـل. لكـن الانهيـار حـدث في فـترة الحـرب وفـور انتهائهـا إذ قطعـت ٢١ دولـة أفريقيّـة علاقاتهـا مـع إسرائيـل كإعـلان تضامـن مـع مـصر، «الشـقيقة المصريـة» كمـا تسـمى في هـذا الخطـاب، واحتجاجـا عـلى قطـع إسرائيـل قنـاة السـويس عسـكريا وهـو مـا صـور عـلى أنـه «اجتيـاح إسرائيـلي لأفريقيـا».

يقـول نويبرغـر إن قطـع العلاقـات كان «جماعيًـا» ولـم تبـقِ عـلى العلاقـات سـوى أربـع دول أفريقيّـة غـير مركزيـة هـي: سـوازيلاند، مـلاوي، لسـوتو وماوريتسـيوس، والتـي عـادت وقطعـت هـي الأخـرى العلاقـات بعـد ٣ سـنوات، عـام ١٩٧٦. وفقًـا لتلـك القـراءة، فـإن هـذا الوضـع الجديـد حينـذاك قـد خلـق مـا يشـبه الانقـلاب في علاقـات إسرائيـل وجنـوب أفريقيـا. وبـات موقـف معسـكر مـا يعـرف باسـم الواقعيـة السياسـية أقـوى؛ إذ لـم تعـد هنـاك حاجـة لأخـذ سـائر أفريقيـا بالاعتبـار، والتـي وصفـت حتـى بـ«الخائنـة» بـل ربمـا كانـت هنـاك دوافـع للانتقـام منهـا عـلى قطـع العلاقـات. وبالفعـل في العـام ١٩٧٤ فتحـت كل مـن إسرائيـل وجنـوب أفريقيـا سـفارتين في بريتوريـا وتـل أبيـب. وتمـت دعـوة رئيـس حكومـة جنـوب أفريقيـا لزيـارة إسرائيـل وتعـززت العلاقـات الأمنيـة والاقتصاديـة بـين الدولتـين.[٨]

على الرغم من الإدانات الكلامية من قبل زعماء إسرائيل لسياسية الأبرتهايد فوق المنصات الدولية، كان هناك خلل يستحيل إخفاؤه في منظومة العلاقات الثنائية. وكانت بنظر أجزاء واسعة في العالم - بما يشمل قطاعات ليبرالية، وليس تلك المناصرة للمعسكر السوفييتي وحلفائه فقط - أشبه «بتحالف المجذومين".

٣.ب. "الانتقام": جنوب أفريقيا الأبرتهايد – بديلا لسائر القارة

كان جون فورستر، كما جاء في كتاب ليئيل، رئيسًا لحكومة جنوب أفريقيا، وكانت تقاطعها أجزاء واسعة من المجتمع الدولي، حين طار في العام ١٩٧٦ إلى إسرائيل. كان ضيف رئيس الحكومة الإسرائيلي حينذاك إسحق رابين (العمّالي، بحسب أوصاف تقسيمة الحلبة السياسية الإسرائيلية). توسّعت بعد هذه الزيارة العلاقات الأمنية، ووصلت بمرور السنين إلى درجة تدريب إسرائيل لأسلحة المشاة، والبحرية والقوات الجوية، وشملت تبادلات عسكرية وبحثية وتطوير صناعات عسكرية وخصوصًا صناعات عسكرية جوية. سوف تتطوّر منذ هذه اللحظة العلاقات الاقتصادية والعسكرية بين الدولتين بوتيرة سريعة جدا سرعان ما وصلت إلى خانة «العلاقات الخاصة».

يقول بروفسور نويبرغر في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه، إن قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٧٥ الذي ساوى بين العنصرية والصهيونية، كان بمثابة «تحذير لإسرائيل مما ينتظرها فيما لو واصلت علاقاتها مع جنوب أفريقيا، ما سيعني تدهور مكانتها في العالم الثالث». لكن «الكثير من الزعماء الإسرائيليين رأوا في جنوب أفريقيا – جنوب أفريقيا الأبرتهايد – بديلا استراتيجيا واقتصاديا لسائر القارة. بما يشبه انتقام المهزوم»، على حدّ وصف ليئيل. فالدولتان كانتا بمثابة جزيرتين معزولتين في المنظومة الدولية بنظر نفسيهما، وفي آذار عام ١٩٧٤ قررت إسرائيل رفع مستوى العلاقات إلى درجة تبادل سفارات.[٩]

لم يمضِ وقت طويل على هذا التحالف، حتى بدأت الصحافة الدولية بكشف الصفقات الواسعة بين جنوب أفريقيا وبين شبكة الصناعات الأمنية في إسرائيل، وكذلك الدعم الإسرائيلي لتطوير أسلحة وطائرات لصالح جيش جنوب أفريقيا. وعلى الرغم من الإدانات الكلامية من قبل زعماء إسرائيل لسياسية الأبرتهايد فوق المنصات الدولية، كان هناك خلل يستحيل إخفاؤه في منظومة العلاقات الثنائية. وكانت بنظر أجزاء واسعة في العالم – بما يشمل قطاعات ليبرالية، وليس تلك المناصرة للمعسكر السوفييتي وحلفائه فقط – أشبه «بتحالف المجذومين». وأشبه بملاحظة نويبرغر، يقول الدبلوماسي ليئيل: «لقد اشتدت قوة هذا الانطباع مع صدور قرار الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ الذي ساوى ما بين الصهيونية وما بين العنصرية والأبرتهايد».

٤.أ. إنتاج عقيدة «المحاصَرين» ونسج شبكة العلاقات العسكرية

نظرت المؤسسة الحاكمة في جنوب أفريقيا إلى نفسها على أنها قوة مهددة أمام قوى تحرر وطني في الدول المجاورة، وخصوصا أنغولا وموزمبيق. فنظرت «الدولة البيضاء» إلى نفسها على الجبهتين على أنها محاصرة من قبل الغالبية الشيوعية التي تسيطر عليها موسكو. إن سياسة بث شعور الحصار هذا، هو ما ساعد نظام الأبرتهايد على تجنيد الموارد القومية في صفوف الجمهور الأبيض.

كانت العلاقات العسكرية بين جنوب أفريقيا وإسرائيل تدور في الخفاء على الأغلب. أشارت المنشورات الصحافية في البداية إلى تفاصيل عسكرية دقيقة:

* علاقات في المجال البحري، والمقصود بناء سفن من طراز «ريشيف» التي سميت في جنوب أفريقيا «مينيستر»، وكانت مزودة بمنظومة صواريخ بحر-بحر من طراز «جبريئيل» والتي سميت في جنوب أفريقيا «سكوربيون».
* استبدال مدفعية جيش جنوب أفريقيا بمدفعية أكبر

واصلت الصحافة كشف مجالات التعاون العسكري بين إسرائيل وجنوب أفريقيا، ومنها المخابرات، وكذلك مدرعات تفريق المظاهرات التي تلقتها شرطة جنوب أفريقيا وهي من إنتاج صناعات كيبوتس بيت ألفا. لكن ما أشغل إسرائيل في حينه ليس «الفضائح» بل إن تلك الصناعات قد تسرّبت إلى دول أخرى وكسبت منها جنوب أفريقيا على حساب المنتجين الإسرائيليين!

من قياس ١٠٥ ميليمتر، ما حوّل سلاح الدبابات إلى سلاح القتال الرئيسي على الجبهة مع أنغولا الشيوعية.

* تزويد جنوب أفريقيا بالقوة المعرفية الخاصة بمنظومة الرؤية وإطلاق النار الليلة، وكانت قاعدة تطوير منظومة «تايجر»، وهي منظومة رقابة الأسلحة النارية الجنوب أفريقيّة.
* عقد اتفاقيات وصفقات تزويد ذخيرة القذائف لمدفعية الطيران وقذائف الطيارات إضافة إلى تقديم الاستشارة للكليات القتالية في جنوب أفريقيا. تمت إقامة مطارات وتحسين أسراب الطائرات العسكرية بما فيها ٥٠ طائرة من طراز «ميراج» وبيع طائرات بدون طيار وتراخيص لإنتاجها وبيع طائرات إنذار من طراز بوينج ٧٠٧ التي ركبت عليها منظومة فالكون من إنتاج إسرائيل.

يروي ليئيل الحادثة التالية للإشارة إلى عمق تداخل العلاقات العسكرية بين الحكومتين:

كشف عضو البرلمان وسفير جنوب أفريقيا في الولايات المتحدة في حينه هاري شفارتس أنه خلال إحدى جولات لنواب برلمان على مدمرة جنوب أفريقيّة، رأى عتادا عسكريا وصواريخ مكتوبٌ عليها باللغة العبرية، وكان قد قيل للوفد البرلماني إن السفينة بعتادها من صناعة جنوب أفريقيا. وهنا توجه شفارتس إلى وزير الأمن مالان، وقال ساخرًا إنه سعيد بتحول جنوب أفريقيا إلى «دولة ثنائية اللغة»، وأنها تخفف وتسهل على الجنود اليهود الذين يخدمون في جيشها. ونُقل عن البرلماني شفارتس أن مالان «لم يكن سعيدا بهذا الخبر».

واصلت الصحافة كشف مجالات التعاون العسكري بين إسرائيل وجنوب أفريقيا، ومنها المخابرات وكذلك مدرعات تفريق المظاهرات التي تلقتها شرطة جنوب أفريقيا وهي من إنتاج صناعات كيبوتس بيت ألفا. لكن ما أشغل إسرائيل في حينه ليس «الفضائح» بل إن تلك الصناعات قد تسرّبت إلى دول أخرى وكسبت منها جنوب أفريقيا على حساب المنتجين الإسرائيليين!

كتبت الصحافة الاسرائيلية عام ١٩٨٧ أنه «كُشف عن أن عشرات مهندسي وخبراء الصناعات الجوية في إسرائيل كانوا يجرون مفاوضات في مراحل متفاوتة مع الصناعات الجوية في نظام بريتوريا العنصري للانتقال إلى العمل هناك. مسودات اتفاقات العمل موجودة في أيدي المهندسين والخبراء الإسرائيليين، وأن الصناعات الجوية في جنوب أفريقيا تقترح على الإسرائيليين دفع أجورهم عبر البنوك في سويسرا. وكانت سلطات بريتوريا شرعت في تجنيد خبراء الصناعات الجوية الإسرائيليين قبل اتخاذ القرار الإسرائيلي القاضي بدفن مشروع (الطائرة الحربية) «لافي» بواسطة إعلانات في الصحف ووسطاء خاصين، أما أحد أعضاء الإدارة في الصناعات الجوية الإسرائيلية فقال إن عشرات مستخدمي الصناعات كانوا استغلوا العطلة السنوية للسفر إلى جنوب أفريقيا والاطلاع بأنفسهم على ما اقترح عليهم ولدفع المفاوضات بينهم وبين سلطات بريتوريا، وذكر أن المرشحين للانتقال إلى الصناعات الجوية في جنوب أفريقيا هم صفوة الخبراء في الصناعات الجوية الإسرائيلية».[١٠]

٤.ب. «التماع وميض ضخم فوق المحيط الهندي»: أسلحة الدمار الشامل

انتقل التعاون العسكري في مجال الأسلحة التقليدية لاحقًا إلى مناطق هائلة الخطر: إلى مجال الأسلحة غير التقليدية. ونقلت الصحافة مرّة تلو الأخرى إن هذا طال حتى المجال النووي. فقد طوّرت جنوب أفريقيا

اعتبرت الأوساط الإسرائيلية أن نجاح إسرائيل في الإبقاء على العلاقات مع جنوب أفريقيا بعد سقوط الأبرتهايد وصعود قوى الغالبية السوداء إلى الحكم عام ١٩٩٤ هو «إنجاز دبلوماسي كبير». في ضوء العلاقات القريبة، وخصوصا العلاقات الأمنية الوثيقة بين إسرائيل ونظام الابرتهايد، كان من الوارد أن تقطع جنوب أفريقيا علاقاتها مع إسرائيل، لكن الأمر لم يحدث

بمرور السنين سلاحا نوويا وأصرّت الصحافة على أن هذا تحقق بمساعدة الدعم الذي قدمته إسرائيل لعمليات التطوير. في شباط ١٩٨٠ نشرت شبكة «سي بي إس» الأميركية أن قمر تجسس صناعيا أميركيا في الفلبين قد التقط هزات بحرية في أيلول ١٩٧٩ بعد التماع وميض ضخم فوق المحيط الهندي. وقدّر جهاز المخابرات الأميركي أن هذه كانت تجربة نووية لكنه لم يتوصل لاستنتاج نهائي. وكان التقدير أن سفن سلاح البحرية التابع لجنوب أفريقيا هو من أجرى هذه التجربة النووية، وقدر معظم أعضاء الطاقم الأميركي أن هذه كانت تجربة نووية مشتركة لإسرائيل وجنوب أفريقيا. وكانت روايات أخرى ادعت أن الحضور الإسرائيلي كان «لخبراء فقط مكثوا على إحدى السفن المرافقة لفحص نتائج التجربة لا أكثر».

ضمن سجل التعاون العسكري كان هناك أيضا الصواريخ المضادة للدبابات وصواريخ جو جو من طراز «بيتون». بل إن شبكة التلفزة الأميركية «إن بي سي» تحدثت عن استخدام صاروخ باليستي متوسط المدى في تجربة نارية وكان يستند، وفقا للصحافة الأجنبية، على الصاروخ الإسرائيلي «يريحو٢» وذلك خلال مناورة في حزيران ١٩٨٩ في موقع أرنيستون في جنوب أفريقيا. وكشف التحقيق الصحافي في حينه صورا لتجارب بأسلحة باليستية وقد جرّ هذا تصريحات غاضبة حتى من الرئيس الأميركي في حينه جورج بوش الأب، الذي قال إن العلاقات النووية لإسرائيل مع بريتوريا سوف تعقد العلاقات الإسرائيلية الأميركية.

يجدر التنويه إلى أنه على الرغم من الاحتجاجات الرسمية الأميركية المتأخرة، فقد سبق أن اتهمت دول أفريقيّة، منذ السبعينيات، واشنطن إلى جانب إسرائيل وفرنسا بالضلوع في التسليح النووي لبريتوريا. مثلا، أعلن «مركز منظمة الوحدة الأفريقيّة» عن «احتجاج المنظمة الشديد على تحويل جنوب أفريقيا إلى دولة نووية كبرى». واتهم المركز، في بيان أصدره في العاصمة الأثيوبية، فرنسا بتقديم الفرن الذري لجنوب أفريقيا، والولايات المتحدة بتقديم مادة اليورانيوم الغنية بالإشعاع الذري، واتهم إسرائيل بتقديم الخبرة العلمية لها. وأضاف إن تحويل جنوب أفريقيا إلى دولة نووية كبرى يعرض للخطر ليس فقط السلام في أفريقيا، إنما السلام في العالم أجمع. وكان سكرتير عام المنظمة بالوكالة، نور الدين زيدي، قد استدعى إليه سفيري فرنسا والولايات المتحدة حيث احتج لديهما على قيام حكومتيهما بتقديم المساعدات إلى جنوب أفريقيا لتقوية قدراتها العسكرية والنووية».[١١]

٥.أ. سقوط الأبرتهايد وتحوّلات العلاقات بعد ١٩٩٤

اعتبرت الأوساط الإسرائيلية أن نجاح إسرائيل في الإبقاء على العلاقات مع جنوب أفريقيا بعد سقوط الأبرتهايد وصعود قوى الغالبية السوداء إلى الحكم عام ١٩٩٤ هو «إنجاز دبلوماسي كبير».[١٢] في ضوء العلاقات القريبة وخصوصا العلاقات الأمنية الوثيقة بين إسرائيل ونظام الابرتهايد، كان من الوارد أن تقطع جنوب أفريقيا علاقاتها مع إسرائيل، لكن الأمر لم يحدث. تعود أسباب لذلك تعود أيضا إلى أن إسرائيل انضمت عام ١٩٨٧ على الرغم من علاقاتها إلى منظومة العقوبات الدولية ضد جنوب أفريقيا وبدأت بإقامة علاقات مع قيادة النظام الجديد مسبقا بواسطة أجسام وهيئات غير حكومية مثل هستدروت ومعهد العلاقات الدولية. كذلك شكّلت اتفاقات أوسلو عام ١٩٩٣ إشارة لمنديلا ورفاقه إلى حدوث تغيير في إسرائيل، فأصدقائهم في منظمة التحرير الفلسطينية

جنوب إفريقيا.. قصة نضال تحولت لنموذج عالمية.

أقامـوا علاقـات واتفاقـات مـع إسرائيـل، فهـل سـتكون جنـوب أفريقيـا متطرفـة أكثـر منهـن؟

رأى نويبرغـر أن تجديـد العلاقـات مـع دول أفريقيـا نبـع أساسـا مـن انهيـار الكتلـة السـوفييتية وانتهـاء الحـرب البـاردة. فالكثـير مـن الـدول باتـت بـدون المعـين السـوفييتي التقليـدي وفقـدت مصـادر دعـم كبـيرة، وانطبق هـذا عـلى دول بـدأت تخـشى خصوصـا مـن صعـود تيـارات راديكاليـة في داخلهـا. وهكـذا سـارت العلاقـات الإسرائيليـة الأفريقيّـة عـلى عجـلات تـدور بالأسـاس حـول مصالـح تجاريـة شـخصية وأصحـاب ورجـال أعمـال، كثـيرون منهـم ضبـاط سـابقون يعملـون في مجـالات صفقـات السـلاح. وهنـاك نشـاط داعـم مـن قبـل منظمـة التعـاون الدوليـة في مجـالات الـري، الطـب والزراعـة.

كتـب عالـم الاجتمـاع والمحـاضر في جامعـة ويتـس في جوهانسـبورغ، ران غرينشـتاين[١٣] أنـه لأسـباب واضحـة، كان عـام ١٩٩٤ إيذانـا بنهايـة العلاقـات الوثيقـة بـين إسرائيـل وجنـوب أفريقيـا. لـم تكـن الحكومـة الجديـدة بقيـادة حـزب المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي بحاجـة إلى شراكة حصريـة مـع إسرائيـل. فقـد كانـت احتياجاتهـا العسـكرية – أو بالأحـرى تلـك التـي تحددهـا النخـب السياسـية – مختلفـة عـن احتياجـات نظـام الفصـل العنـصري، وصـار يمكـن تلبيتهـا مـن مصـادر أخـرى (في المقـام الأول دول وشركات أوروبـا الغربيـة. عـلى الرغـم مـن الموقـف البراغماتـي الـذي تبنتـه حكومـة حـزب المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي في جهودهـا الدبلوماسـية وعلاقاتهـا الدوليـة، لـم تكـن مكافـأة «الشريـك العسـكري الأهـم لدولـة الفصـل العنـصري» أولويـة، خاصـة عندمـا أصبحـت جنـوب أفريقيـا خاليـة مـن العزلـة التـي فرضتهـا عقوبـات مناهضـة الفصـل العنـصري.

بـل يـرى أنـه حتـى لـو لـم تكـن الحكومـة الجديـدة «عازمـة عـلى الانتقـام» مـن إسرائيـل لتعاونهـا السـابق مـع نظـام الفصـل العنـصري، فمـن الواضـح أنهـا لـم تجـد أي سـبب يصـب في صالحهـا، لا سياسـيا ولا اقتصاديـا، لمنحهـا معاملـة تفضيليـة. كذلـك، فقـد أبـدت المؤسسـة العسـكرية الإسرائيليـة موقفـا أكثـر حـذرا. وبـدأت جنـوب أفريقيـا في تنميـة علاقـات جيـدة مـع الـدول التـي كانـت تعتـبر أكـبر أعـداء دولـة إسرائيل (إيـران والعـراق وليبيـا وسـورية)، وكان الخـوف في اسرائيـل يكـبر مـن أن تجـد التكنولوجيـا وأنظمـة الأسـلحة المصـدّرة طريقهـا إلى تلـك الـدول. وهـذا مـا خفـف «الحماسـة المعتـادة» لبيـع المنتجـات العسـكرية الإسرائيليـة. وحـين أصبحـت جنـوب أفريقيـا نفسـها منتجًـا ومصـدرًا مهمًـا للأسـلحة، وبالتـالي منافسًـا في الأسـواق الخارجيـة، بـات مسـؤولو الدولـة والجيـش الإسرائيليـون حذريـن مـن وجـود علاقـة وثيقـة جـدًا مـع شركائهـم السـابقين.

كذلك، أدى الارتفاع المتزامن لزبائن جدد مع شهية لا تشبع تقريبًا للمنظومات الأمنية العسكرية والتقنية - الصين والهند على وجه الخصوص - إلى جعل سوق جنوب أفريقيا أقل أهمية في نظر الإسرائيليين. لتقدير ظروف ما بعد ١٩٩٤، نحتاج إلى العودة إلى السؤال عن سبب كون إسرائيل الدولة الوحيدة التي أقامت مثل هذه العلاقات العسكرية المكثفة مع نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. يمكن تقديم سببين رئيسيين ومرتبطين بالتحالف العسكري:

- سبب تكتيكي: الموقف الماثل للبلدين من أوائل السبعينيات إلى أوائل التسعينيات، كدول منبوذة على الساحة الدولية.
- وسبب إستراتيجي: أصولهم المتشابهة في الصراع الطويل الأمد بين السكان الأصليين والحركات السياسية للمستوطنين. من الواضح أن السبب الأول لم يعد ذا صلة. لقد نشأ عن ظرف معين غاب مع غياب الكتلة السوفييتية والحرب الباردة.

٥.ب. معادلة علاقات دولية جديدة انخفضت فيها قيمة العلاقات مع اسرائيل

يرى غرينشتاين أن شكل العلاقات المتشكّلة مجددا بين الدولتين بدأت تظهر عواقبه في ثلاثة مجالات:

- إن أوجه التشابه التاريخية بين وضعي الصراع جعلت القوى السياسية في جنوب أفريقيا حساسة بشكل خاص للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. نتيجة لذلك، حاولت حكومة جنوب أفريقيا والنشطاء المستقلون لعب دور تدخلي كوسطاء، بشكل عام دون نجاح كبير، وكذلك كقادة في المبادرات السياسية. وتشمل هذه الشروط التي تفرضها وزارة التجارة والصناعة لوضع علامات على المنتجات من المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. والدراسة التي رعتها الحكومة لتحديد ما إذا كان الحكم الإسرائيلي في الأراضي المحتلة هو شكل من أشكال الاستعمار والفصل العنصري ؛ والدعم الأخير من قبل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي لحملة العقوبات ضد إسرائيل.
- أدى الاهتمام الشديد بالصراع إلى حدوث صدام بين فئات محلية تتماهى مع أطراف مختلفة. يشير هذا قبل كل شيء إلى عناصر داخل المجتمعين اليهودي والإسلامي في البلاد، ولكن أيضًا إلى النشطاء الآخرين وحركات التضامن. على الرغم من أن كلا المجتمعين العرقي/ الديني صغيران إلى حد ما ولم يؤثر الاشتباك على غالبية السكان الذين لا ينتمون إلى أي منهما، فقد أصبح موضوعًا مثيرًا للقلق في بعض الأماكن.
- إن الإرث الرمزي للنضال ضد الفصل العنصري جعل المقارنات مع إسرائيل/ فلسطين قوية سياسياً، كتحليل للوضع وكوصفة للتغيير. يتجاوز هذا الاستخدام للرمزية حدود جنوب أفريقيا وأصبح قضية مهمة في سياسات التضامن العالمي والمناقشات حولها. إن الدور الذي يلعبه بعض النشطاء جنوب الإفريقيين في كل هذا واضح - خاصة فيما يتعلق بالناشطين المعروفين والذين يحظون بالتقدير مثل ديزموند توتو وروني كاسريلز - وكثيراً ما يعتمدون على خبرتهم في التعرض للقمع والنضال ضده في جنوب أفريقيا.

ولكن على النقيض من مجالات الخلاف السياسية الواضحة هذه، فإن تقدم العلاقات الاقتصادية بين البلدين غير ملحوظ. العنصر الوحيد الذي يبرز في التبادل التجاري هو الماس الخام، الذي تبيعه شركات جنوب أفريقيا لإسرائيل ليتم صقله هناك وتصديره إلى دول أخرى. يصعب تحديد الأرقام الخاصة بهذه التجارة لأن الماس يتم شراؤه عادة من مراكز التبادل الدولية في أوروبا (بشكل رئيسي أنتويرب ولندن) وليس مباشرة من جنوب أفريقيا. عادةً ما تستبعد إحصاءات التجارة الإسرائيلية الماس لأن القيمة المضافة في إسرائيل نفسها صغيرة نسبيًا مقارنة بالقيمة الإجمالية للتجارة (فهي تضخم جانب الاستيراد والتصدير في الميزان التجاري).